المظهر والجوهر ... الشكل والمحتوى

وصلنا رسالة من احد السجناء في سجن نفر السبع ، يسأل فيها عن معنى مقولتي الشكل والمحتوى والمظهر والجوهر ، ويطلب نشر الجواب كي يمكن الاطلاع عليه . وها نحن بدورنا نجيب على سؤالك :

قبل الاجابة على هذا السؤال من الواجب اولا الاشارة الى ان مقولات " الشكل والمحتوى " و " المظهر والجوهر " هي من مقولات المادية الديالكتيكية الرئيسية .

والمقولات هي المفاهيم الفلسفية الاساسية والاكثر شمولا ، والتي من خلالها تدرس الفلسفة ، وتبحث الصفات ، والصلات ، والعلاقات العامة بين الاشياء وكذلك قوانين التطور الفاعلة في الطبيعة والمجتمع والفكر البشري .

وكانكال عامة للتفكير العلمي فان المقولات قد نشأت وتطورت على اساس التطبيق الاجتماعي ، ومن حيث محتواها فهي تعكس الواقع الموضوعي القائم .

وتختلف المقولات الديالكتيكية عن المفاهيم العامة الخاصة لكل علم بخصوصيتها ، وضرورتها للتفكير العلمي في كافة الميادين ، ومن هنا تستمد قيمتها المنهجية في البحث العلمي .

ان المقولات تتطور ، وبشكل عام فان محتواها يغتني بتطور المعرفة البشرية ، وبذلك فانها تقترب باستمرار من التصوير الكامل والشامل للعالم الموضوعي . وكل مقولة من المقولات تعكس جانبا من جوانب العالم الموضوعي وهي مجموعها كما قال لينين " تحيط حسيا وتقريبيا بالناموس العام للطبيعة المتحركة والمتطورة على الدوام " .

ولفهم كل مقولة من المقولات فلا يكفي تحليلها كما هي بمعزل عن المقولات الاخرى ، فالاشياء في الواقع الموضوعي مترابطة ، وتتواجد في حالة تفاعل مستمر ، وبالتالي فان المقولات التي تعكس هذا الواقع مترابطة بشكل يحتم تناول كل منها كعنصر محدد من عناصر منظومة معقدة من المقولات الديالكتيكية ، هذا الترابط بالذات يعكس تاريخ التطور وتكون المعرفة البشرية ... من البسيط الى الاعقد .. من المحسوس الى المجرد ... من الفرد الى العام ... الخ

وفي نفس الوقت فان المقولات ترتبط بشكل وثيق مع قوانين الديالكتيك الاساسية ، تلك القوانين التي تعبر عن نفسها بشكل فقط من خلال مقولات محددة مثلا – قانون وحدة وصراع الاضداد يعبر عن نفسه من خلال مقولات التناقض ، التضاد ، الاضداد ... الخ " وفي نفس الوقت فان العلاقة بين المقولات تعكس فعل قوانين الديالكتيك كما سنبين لا حقا . لهذا فالمطلوب ليس السعي لتجريد المقولات عن بعضها البعض ، بل محاولة فهمها ضمن اطار علاقاتها الديالكتيكية وترابطها المتبادل

قبل الاجابة على هذا السؤال من الواجب اولا الاشارة الى ان مقولات " الشكل والمحتوى " و " المظهر والجوهر " هي من مقولات المادية الديالكتيكية الرئيسية .

والمقولات هي المفاهيم الفلسفية الاساسية والاكثر شمولا ، والتي من خلالها تدرس الفلسفة ، وتبحث الصفات ، والصلات ، والعلاقات العامة بين الاشياء وكذلك قوانين التطور الفاعلة في الطبيعة والمجتمع والفكر البشري .

وكانكال عامة للتفكير العلمي فان المقولات قد نشأت وتطورت على اساس التطبيق الاجتماعي ، ومن حيث محتواها فهي تعكس الواقع الموضوعي القائم .

وتختلف المقولات الديالكتيكية عن المفاهيم العامة الخاصة لكل علم بخصوصيتها ، وضرورتها للتفكير العلمي في كافة الميادين ، ومن هنا تستمد قيمتها المنهجية في البحث العلمي .

ان المقولات تتطور ، وبشكل عام فان محتواها يغتني بتطور المعرفة البشرية ، وبذلك فانها تقترب باستمرار من التصوير الكامل والشامل للعالم الموضوعي . وكل مقولة من المقولات تعكس جانبا من جوانب العالم الموضوعي وهي مجموعها كما قال لينين " تحيط حسيا وتقريبيا بالناموس العام للطبيعة المتحركة والمتطورة على الدوام " .

ولفهم كل مقولة من المقولات فلا يكفي تحليلها كما هي بمعزل عن المقولات الاخرى ، فالاشياء في الواقع الموضوعي مترابطة ، وتتواجد في حالة تفاعل مستمر ، وبالتالي فان المقولات التي تعكس هذا الواقع مترابطة بشكل يحتم تناول كل منها كعنصر محدد من عناصر منظومة معقدة من المقولات الديالكتيكية ، هذا الترابط بالذات يعكس تاريخ التطور وتكون المعرفة البشرية ... من البسيط الى الاعقد .. من المحسوس الى المجرد ... من الفرد الى العام ... الخ

وفي نفس الوقت فان المقولات ترتبط بشكل وثيق مع قوانين الديالكتيك الاساسية ، تلك القوانين التي تعبر عن نفسها بشكل فقط من خلال مقولات محددة مثلا – قانون وحدة وصراع الاضداد يعبر عن نفسه من خلال مقولات التناقض ، التضاد ، الاضداد ... الخ " وفي نفس الوقت فان العلاقة بين المقولات تعكس فعل قوانين الديالكتيك كما سنبين لا حقا . لهذا فالمطلوب ليس السعي لتجريد المقولات عن بعضها البعض ، بل محاولة فهمها ضمن اطار علاقاتها الديالكتيكية وترابطها المتبادل

وفي البداية سنتناول مقولتي الشكل والمحتوى :

ان كل شيء وكل موضوع اما يمثل وحدة للشكل والمحتوى ولا يوجد موضوعيا محتوى عام بل يوجد دوما محتوى محدد بشكل معين .

فما هو المحتوى ؟ انه مجموع كل عناصر الموضوع ، وحدة صفاته وعملياته الداخلية علاقاته ، تناقضاته وتوجهات تطوره ، مثلا ان محتوى الكائن الحي ليس المجموع البسيط لاعضائه ، بل كل عملية نشاطه الحيوي والتي تجري بشكل محدد .

اما الشكل : فهو طريقة التعبير الخارجي للمحتوى ، العلاقة المحددة والثابتة نسبيا بين عناصر المحتوى ، نوع وهيكل المحتوى .

ان الشكل والمحتوى يمثلان علاقة محددة ليس بين جوانب مختلفة فقط ، بل ومتناقضة ، وفي نفس الوقت فان تقسيم الموضوع الى شكل ومحتوى لا يمكن ان يصير الا من خلال وحدتهما المتماسكة .

وليس هناك حدود خالدة بين الشكل والمحتوى ، فكليهما يمكن ان يتحول للاخر ، ان التفكير مثلا هو محتوى العمليات الفسيولوجية العصبية .

وفي الشكل تتمثل وحدة الداخلي والخارجي . فكاطار لعلاقة عناصر الموضوع ببعضها البعض يمثل الشكل شيئا داخليا بحتا ، وبذلك فانه يتحول الى لحظة من لحظات المحتوى . وكاطار لعلاقة محتوى الشيء بالمحتويات الاخرى يصير الشكل شيئا خارجيا بحتا .

ان مقولتي الشكل والمحتوى لهما اهمية خاصة في فهم ديالكتيك عمليات التطور ، واذا كان المحتوى يمثل الجانب القائد ، المحدد ، فان الشكل يمثل الجانب المتغير بما يتلاءم مع تغير وتطور المحتوى وظروف وجوده المحددة .

وفي نفس الوقت فان الشكل يسهم في تسريع تطور هذا المحتوى ، وبمرور الوقت فان نفس الشكل يصبح تدريجيا غير ملائم للمحتوى الجديد الناشيء عن عملية التطور ، بل ويأخذ في لعب دور الكابح للتطور حتى تحين اللحظة التي يؤدي عندها هذا التناقض الى استبدال الشكل القديم بشكل جديد اكثر ملائمة للمحتوى المتطور ومرة اخرى يلعب الشكل الجديد دورا اساسيا في تطوير المحتوى .

وكمثل واضح على ذلك يمكن ان نأخذ علاقات الانتاج كشكل بالنسبة لقوى الانتاج التي تمثل المحتوى . وفيما ذكر اعلاه يتجلى بوضوح فعل قانون وحدة وصراع الاضداد "وحدة وصراع الشكل والمحتوى " .

ان وحدة الشكل والمحتوى تفترض استقلاليتهما النسبية – وهذا يتجلى في ان الشكل يمكن ان يتأخر نسبيا عن تطور المحتوى . واستقلالية المحتوى قد تؤدي الى ان نفس المحتوى يمكن ان يظهر في اشكال مختلفة " مثلا ديكتاتورية الطبقة العاملة اخذت شكل سلطة السوفيتات في الاتحاد السوفياتي ، بينما اخذت شكل الدمقراطيات الشعبية في بلدان كبلغاريا وبولندا والمجر .... الخ

وكذلك فان شكلا واحدا يمكن ان يعكس محتويات مختلفة .

ان الفهم العميق للعلاقة بين الشكل والمحتوى واستقلاليتهما النسبية يلعب دورا هاما في تنظيم النشاط العملي . وكما اكد لينين فلا بد من التحلي بمرونة عظيمة عند استنباط اشكال تنظيم الطبقة العاملة بما يتناسب مع الظروف الملموسة والمحددة .

اما المظهر والجوهر ، فهما مقولتان فلسفيتان تعكسان كل الجوانب العامة والضرورية لجميع الاشياء والعمليات الموجودة موضوعيا .

ان فهم جوهر الشيء – هو فهم سبب شيء ، قوانين حياته ، صفات تناقضاته الداخلية ، اتجاهات تطوره وصفاته المقررة .

ان الجوهر – هو الواقع المميز الذي يشكل اساس الموضوع (الشيء) ويتمتع بثبات معين ، ويمثل الرئيسي في محتواه ، اي ان الجوهر هو الحلقة الرئيسية في سلسلة الداخلية لجوانب الموضوع .

فمثلا .. ان جوهر النظام الراسمالي يتمثل في الملكية الخاصة لوسائل الانتاج او بمعنى اخر في فصل المنتجين الحقيقيين ، العمال ، عن وسائل الانتاج ، وهذا الجوهر يظهر في استغلال الانسان للانسان ، اما جوهر الاشتراكية فيتمثل في الملكية العامة لوسائل الانتاج ، وانعدام الاستغلال ، وتامين الحاجات المتنامية للشغيلة عن طريق التطور المتواصل للانتاج ، والتطوير المخطط للمجتمع .

اما المظهر – فهو التجلي الخارجي للجوهر ، شكل ظهوره .

ان الجوهر والمظهر مترابطان ، يتجددان لبعضهما البعض ، وكما ان الظاهرة لا يمكن ان توجد دون ان يكمن خلفها جوهر ، فان الجوهر لا يمكن ان يظهر في مظهر معين .

واذا كان الجوهر هو العام ، فان المظهر هو المفرد ، التعبير عن لحظة من لحظات الجوهر .

واذا كان الجوهر هو العمق ، الداخل ، فان المظهر هو الخارج ... واذا كان الجوهر هو الثابت .... الضرورة ، فان المظهر هو العابر ، المتغير ، الصدفة .

وكما يقول لينين فان المظهر غير ثابت غالبا ، وغير متماسك ، ويورد كمثل الزبد الطافي على سطح مياه النهر المتحركة ، الزبد الساكن على سطح النهر هو المظهر ، والتيار العميق الهادر هو الجوهر ، ولكن الزبد يبقى تجليا للجوهر ... للحركة العميقة .

وفي نفس الوقت فان الفرق بين الجوهر والمظهر غير مطلق بل نسبي والحدود بينهما غير خالدة . مثلا ان الخاصية الجوهرية للعناصر الكيماوية قد اعتبرت في السابق الوزن الذري . ثم اتضح ان الخاصية الاكثر جوهرية هي الشحنة . والوزن الذري لم يتوقف عن ان يكون جوهريا الا انه اصبح جوهرا اقل عمقا مظهرا بالنسبة للشحنة " الجوهر الاعمق " .

وجوهر اي شيء يمكن الوصول اليه على درجات مختلفة الكمال . ان المعرفة تسير ليس فقط من المظهر الى الجوهر بل ومن جوهر من الدرجة الاولى الى جوهر اكثر عمقا من الدرجة السابقة وهكذا الى ما لا نهاية .

كما ان الجوهر قد يتجلى في الظواهر ، فانه قد يختفي خلفها مثلا ضمن اطار النظام الراسمالي قد يبدو ان اجرة العامل هي مقابل عمله في حين انها مقابله فقط لجزء من هذا العمل والفائض يسمى بالقيمة الزائدة التي تذهب الى الراسمالي " صاحب العمل " وتشكل مصدر الربح .

اي وباختصار ، ان الوصول للجوهر يتطلب التعمق الدائم للظواهر ، والدراسة العميقة لها ، والعبور منها الى الجوهر الكامن خلفها ، وهذا هو واجب العلم والمعرفة السليمة .

وكما قال ماركس " فلو تطابق كل جوهر مع مظهره تماما لما كان هناك حاجة اصلا للعلوم " .

وهكذا فان الوصول للجوهر يتطلب تحليل اشكال تجلية المختلفة ، مظاهره . كما ان فهم المظهر لا يمكن ان يتم دون ادراك اساسه اي دون ادراك جوهره .

نوافير في زوايا الوطن

بقلم محمد شحاده

على مساحات هذا الوطن يولدون كل يوم ، وتشع الازقة بسماتهم ، وتبكي السماء حين تتجمع الدموع في عيونهم ، فقد كرهوا البكاء ، لكنهم عادوا يحنون للبسمة البريئة ، حين ادركوا ان هنالك ، روادا ، كرسوا حياتهم ، في سبيل ان يخلقوا لهم المستقبل المشرق ، ويوفروا لهم في السماء شمسا صافية لا تغيب . هم كالزهور الندية يتفتحون مع كل اطلالة فجر ، يحبون طروقا قاسية وصعبة ، منهم من ينشئ بالاقي ، ومنهم من يقوض مرة والى الابد في اعماقها ، فتبكي الامهات وتنوح البنات وتحلق الاطفال يزقزقون كالعصافير " حين تحر السكاكين اعناقها " لكنهم يمضون ، فالظروف كما اعلنت صعبة وقاسية ، وعودهم ما عاد شديدا ، الى حد التشبث رغم انهم يفعلون .

وزوايا الوطن شهدت للرواد في عام الطفل الدولي ، فقد قدموا لهم الندوات والحفلات واللقاءات ، ووزعوا عليهم الهدايا والكتب ، واستقبلوا رسوماتهم وطبعوا الاف القبل على جباههم . ولكن التقصير وارد فعلى مستوى الوطن باكمله ، بكل مساحاته ، ينبغي تركيز الاهتمام بهذه "الشتلات" حتى لا تذوى ، وهي لاتذوى فقط من جانب واحد ، هناك مسببات كثيرة ، تجعل " الشتلة " تصفر وتهاجر خضرتها . فدعني اقول ان مكتبات اطفالنا يجب ان تاخذ حيزا كبيرا في تشكيل ثقافتهم ، مما يترك بصماته على مستقبل الاطفال . وعلى الرواد ، ان يطوروا مكتبة الطفل بكل ما هو جديد ويضمن للطفل سلوكا اخلاقيا وانسانيا سليما . كم هو جميل ان يتربى الاطفال على مطبوعات تغرس في نفوسهم الحب للشرف ، بعيدا عن مسلسلات الجريمة والكراهية واللصوصية . وفي هذا الباب لا بد من اعداد مكتبة الطفل في النادي والبيت والمكتبة العامة والمدرسة .

نحن قلنا لا بد ، ونقصد ضمن الامكانيات المتوفرة لدى كل المعنيين باجيال قومية الاخلاق ، تسير بالوطن قدما نحو الشمس . هؤلاء الصغار امانة في اعناقنا جميعا نحن الرواد / المظلومين / المقهورين / المنتصرين . وعلينا الجهل ، فلنغفر كل الظروف التي تقف وراء دمعة تجرح جفن طفل بريء الموت يحصدهم سنويا ، وفي بيوت الكادحين يئنون تحت وطأة المرض حتى الموت ، فلا صحة ولا تغذية ولا خدمات لائقة على الاقل ، وعلى الاطباء المخلصين الشرفاء ، انتشال زهراتنا من هذا الوضع الصحي التعس ، ويكون ذلك بمزيد من الابحاث العلمية والندوات الطبية وتوعية الاهل حول سبل الوقاية الصحيحة . بوسائل اخرى كثيرة يبقى اطفالنا شموسا في كل زاوية من زوايا هذا الوطن ، يبقون ضحكة مريئة ، يبقون اناشيد محبة وازهار حدائق ، يبقون الجيل الذي نريد والبذرة التي تنمو في اعماق الارض فتفرع مليون غصن تحط عليها العصافير ، وتسبح للرواد ، صانعي فجر الاطفال .. فجر الشعوب .

حبي للاطفال ، قلبي للاطفال ، كل البسمات والورود لهم ، كل منابع الشمس لهم ، كل الاقلام وكل الكلمات ، لقمة عيش انتهي ان لم التهمها ، اقدمها للطفل كي يحيا كي لا يتالم ، كي تدوم ابتسامته وانسانيته .

مذكرات باسم التلفزيون

جلست قرب التلفزيون فقال لي ابي ان ذلك مضر بالعينين .. عدت الى الوراء دون وعي . ووقفت احدق وانا اقول في نفسي . يا للمصيبة . يا للشقاء . لقد تالمت كثيرا وامتلاءت عيناي بالدموع وسقطت الدموع دون ارادتي ...

كان الفلم يبدو طويلا جدا في نظري . لقد سقط فيه عشرات القتلى وجرح المئات وشرد الالاف عن دورهم وارضهم . ولكن في نهاية الفلم ، كانت الشمس تظهر في الافق كبيرة .. ترتفع شيئا فشيئا الى كبد السماء . انتبهت الى صوت ابي يحدثني . واعتقد انه كرر كلامه فقلت له دون ان اسمعه :– انظر يا ابي كم هو جميل منظر الشمس وهي ترتفع في السماء ؟

قال ابي : طبعا يا ولدي ، الشمس حين تشرق ترتفع نحو مسارها الطبيعي .